الأهرام

المصدر: الشرق الاوسط

التاريخ: ١٠ ابريل ٢٠٠٣

ماذا حدث لحزب البعث بأعضائه المليون؟

الحزب بدأ 1946 عصبة صغيرة وجاء للسلطة بقطار أميركي وذهب بنفس القطار

لندن: علي الصراف

اليوم يصل قطار حزب البعث العربي الاشتراكي (1946 ـ 2003) الى محطته الأخيرة، تاركا العراق، كما وعد قادته غير مرة، ارضا يبابا، وبشرا مسحوقين.

هل كان يمكن لأحد ان يتصور ان «الجماهير» التي كانت تهتف بحياة «الرئيس القائد.. تقوم بضرب صوره بالأحذية، وتساعد «الغزاة الامبرياليين والصهاينة»، حسب لغة حزب البعث في الاطاحة بنصبه التذكارية؟ واين ذهب حزب البعث العربي الاشتراكي باعضائه الذين يناهز عددهم المليون، وماذا حل بجماهيريته وشعبيته التي كانت اجتاحت الآفاق حتى بدت كما لو انها حقيقة لا سبيل الى مناهضتها بالشكوك؟

في الواقع، لم يكن حزب البعث العربي الاشتراكي، منذ الاعلان عن نشأته في السابع من ابريل (نيسان) 1946 حزبا «جماهيريا»، بمعنى ان يكون حزب حركة شعبية تنطوي على تطلعات لطبقة ما، بل كان حزب عصبة، تجيد المؤامرات السياسية على الآخرين، كما على بعضها البعض، كما تجيد ايضا الاختفاء والتلون بلون المحيط والتسلل الى مراكز النفوذ بانتظار الفرصة السانحة للانقضاض.

وبحكم طبيعة السلطة، اي سلطة، حيث تتوفر الامتيازات والمنافع، فقد كان من السهل على حزب البعث العربي الاشتراكي ان يتحول من حزب يضم بضع عشرات من الافراد الى حزب مسلح بعشرات ومئات الآلاف من الاعضاء «المخلصين» للمبادئ القومية التي يحملها.

لقد تأسس حزب البعث العربي الاشتراكي من اتحاد حزبين سوريين هما حزب البعث العربي بقيادة ميشيل عفلق، والحزب الاشتراكي بقيادة اكرم الحوراني، وامتدت خلاياه الى لبنان فالعراق، قبل ان تتناثر مجموعات صغيرة منه في دول عربية قليلة مثل الاردن والسودان واليمن. واذا كان هناك من يعتقد ان الحزب نشأ تحت تاثير افكار فاشية ونازية، فان اشتراكيته القومية، لم تكن على اي حال، بعيدة الصلة عن الاشتراكية القومية الالمانية. ومثلما ساعد الجرح القومي، الذي نجم عن هزيمة المانيا في الحرب العالمية الاولى على تحويل التطلعات القومية الى نزعة عصابية طاحنة، «ثورية» طبعا، تنزع الى تغيير كل شيء في العالم، وكل الناس، فقد كان من الطبيعي بالنسبة لأمة عربية خرجت من الحربين العالميتين مهزومة ومفككة، ان تفسح مجالا لنزعة مازومة تبحث، هي الأخرى، عن تغيير كل شيء في العالم وكل الناس.

لم ينجح حزب البعث في العراق، بسبب طبيعته «الانقلابية» (حسب التوصيف العراقي لبعض انواع الحركات السياسية) ان يجد سبيلا للانخراط في حركة شعبية عريضة تلتف على اهداف محددة. ولئن وجد البعثيون، او بعض من اعتبروا انفسهم بعثيين فيما بعد، سبيلا للتنسيق مع مجموعات الضباط الأحرار او مع بعض اطراف «جبهة الاتحاد الوطني» المناهضة للملكية (انشئت عام 1957)، الا انهم لم ينظروا الى نشاطات هذا التحالف الشعبية بعين الاهتمام. وفي حين ظل في وسع الحزب الشيوعي العراقي، بسبب طبيعته «الشعبوية» (حسب توصيف مضاد) القيام بتظاهرات واضرابات، فان عيون البعثيين وجهودهم كانت تسير في اتجاه آخر هو التسلل الى الجيش. فقد ادرك البعثيون انه مهما كان عددهم ضيئلا، فان السلطة يمكن ان تكون في متناول يدهم، فقط ان يكون هناك عدد محدود منهم في الوقت والمكان المناسبين. وبما ان السلطة، لا تعني شيئا اكثر من احتلال الاذاعة والقصر الجمهوري، فقد كان البعثيون يعرفون، افضل من اي حزب عراقي آخر، من اين يؤكل كتف السلطة، فالشعب ياتي لاحقا. وهكذا كان. فالشعب العراقي يقي ياتي الى سلطة البعث لاحقا، ليس بعشرات الآلاف، ولا بمئات الآلاف، بل بالملايين احيانا.

وحيثما غرقت سلطة الجمهورية التي اقامها عبد الكريم قاسم عام 1958 بالصراعات بين التيارات والاحزاب المتنافسة، كان البعثيون، في اطار التيار القومي العريض، يتحينون الفرصة للاطاحة بنظام اعتبروه أكثر ميلا الى الشيوعيين، ومعاديا، بطبيعة الحال، للتطلعات الوحدوية القومية. ولم يكن ينقص هذه الصورة غير ان يجد نظام عبد الكريم قاسم نفسه في مواجهة نظام جمال عبد الناصر، لتتاكد طبيعته «الشعوبية» في نظرهم.

ومن قبيل الايمان بقدرة الأفراد على تغيير التاريخ، (فضلا عن كل شيء وكل الناس) انطلق الشاب صدام حسين (ولد عام 1937)، الهارب من قرية العوجة في تكريت ليرتمي في احضان خاله خير الله طلفاح، ويقوم بمحاولة اغتيال قاسم عام 1961, فلما فشل في دخول التاريخ من خلال هذه الفكرة هرب بعيدا.

انتظر البعثيون عامين آخرين، قبل ان يجدوا سبيلا للتحالف مع حفنة ضباط محسوبين على التيار القومي، المناهضين للشيوعيين خصوصا، لينقضوا على السلطة في 8 فبراير (شباط) 1963,

لم يكن الأمر ليتطلب مقدارا كبيرا من الشجاعة ليعترف علي صالح السعدي عضو القيادة القطرية لحزب البعث بان حزبه جاء الى السلطة بقطار اميركي. فالاميركيون الذي خشوا التحاق العراق بالحلقة السوفياتية، كانوا يستطيعون ان يروا مقدار النفوذ الذي يملكه الشيوعيون العراقيون على سلطة عبد الكريم قاسم وفي «الشارع» العراقي، حتى عندما لجأ قاسم الى قمعهم، فكان من اللازم ان يمدوا يد العون للضباط البعثيين والقوميين على الالتحاق باحدى عربات قطارهم.

سوف يحتاج الامر اربعين سنة اخرى (بين عامي 1963 و2003) قبل ان يعود القطار الاميركي نفسه ليخرجهم من السلطة وليضع وجودهم كله على سكة الانسحاق، الا ان تلك السنوات العجاف شهدت من

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

سفك الدماء والخراب ما يجعل الخراب الذي اسفرت عنه ثلاثة اسابيع من اعمال القصف الاميركي مجرد مزحة.

على امتداد تسعة اشهر امضاها البعثيون في السلطة (بين فبراير ونوفمبر 1963) بطشوا، عبر مليشيات «الحرس القومي»، كما لم يبطش احد من قبل بمعارضيه، فقتلوا عشرات الآلاف، وحولوا ملاعب كرة القدم الى معسكرات اعتقال.

ولكن كان هناك قطار آخر في الانتظار، حمل عبد السلام عارف الى الانقضاض على شركائه ليدفعهم اما الى السجون واما الى الهرب. ولكن ليعلمهم في الوقت نفسه، فنا آخر من فنون الانقضاض على السلطة سوف يعودون ليستعينوا به في «ثورة» 17-30 تموز 1968 .

في هذه السنوات الفاصلة وجد صدام حسين السبيل الى العيش في مصر، طالبا لم يتمكن من الاستفادة لا من دراسته التي لم يكملها ولا من انفتاح المصريين واقبالهم على الحياة، فحافظ على انطوائيته وعزلته وعزوفه عن الحياة.

لم يُسمع الكثير عن صدام في تلك السنوات، حتى ظهر حاملا رشاشا خلف احمد حسن البكر ليلقي بالبيان الأول لـ«الثورة البيضاء» التي حملت حزب البعث الى السلطة، بقطار كان نصف ركابه على الأقل يعتقدون انه قطار اميركي أيضا. ومثلما انقض عبد السلام عارف على شركائه البعثيين عام 1963، رد البعثيون الصاع صاعين لشركائهم الذين ساعدوهم في دخول القصر الجمهوري و«احتلال» السلطة التي كان يقودها عبد الرحمن عارف، شقيق عبد السلام. ولكنهم، لم يتركوا لاولئك الشركاء، وفي مقدمتهم عبد الرزاق النايف وعبد الرحمن الداوود، سوى 14 يوما من الاستمتاع بسلطة ذلك القطار قبل ان يجدوا انفسهم تحته. «الأبيض» في تلك «الثورة» التي تم ارتكابها على مرحلتين، لم يدم طويلا. صحيح ان الشيوعيين لم يكونوا في مقدمة الذاهبين الى المسلخ، الا انهم انتهوا اليه في آخر المطاف. فقد بدأت سلطة البعث اول حملاتها الدموية بالانقضاض على «البعثيين اليساريين» (بين عامي 1968 و1970) والثورة الكردية (بين عامي 1974 و1975) والاسلاميين (الشيعة، بقيادة الامام محمد باقر الصدر الذي اعدم عام 1980).

بعد ان تخلص نظام البعث من كل اعدائه وخصومه الحقيقيين والمحتملين، انتهى الغرض من «الجبهة الوطنية والقومية التقدمية» التي كان الشيوعيون يشكلون حجر الزاوية الآخر فيها. فسحقوا كما سحق الذين من قبلهم.

ولم تتوقف حملات التصفيات، لا داخل حزب البعث ولا في خارجه، ومثلما انقض احمد حسن البكر على العارف والداوود، انقض صدام عام 1979 على البكر، ليزيحه، بانقلاب أبيض أيضا، عن السلطة، انما بعد تمكن من احكام سيطرته على مجمل اركانها، ابتداءً من «المكتب العسكري» وصولا الى آخر مركز من مراكز الأمن والمخابرات بل وحتى اتحادات الطلاب والعمال التي جلب اليها اناسا يدينون له، وله وحده، بالولاء.

عمليا، كانت السلطة نوعا من الاحتلال. احتلال البعث والبعثيين ليس لكل مراكز النفوذ في الادارة العامة بل ولكل وظيفة عامة. واحتلال الفكر والثقافة والأدب بل وحتى الطرب والغناء. وكاي احتلال آخر، اختزلت السطحية والشعارات كل اوجه ثقافة بلد، كان ينظر اليه على انه منارة تجديد وتيارات ابداعية مختلفة. وحسب ثقافة الاحتلال، لم يعد «القائد صدام» هو المبدع الأول فحسب، بل والمبدع الوحيد ايضا، في «الفكر» و«السياسة» و«الاستراتيجيات العسكرية» وخصوصا في... الانتصار في جميع الحروب. ولئن لم يكن حزب البعث، سوى حزب احتلال، فقد كان من طبيعة الأشياء ان يقع هو نفسه تحت الاحتلال. حيث احتل الرئيس صدام، وحاشية صغيرة اتسعت قليلا فقليلا لاقاربه، كل مظهر من مظاهر السلطة، وكل مصدر من مصادر صنع القرار.

www.ethraadl.com